

## أنغام القانون تأخذ الدانوب شرقاً وغرباً

الأحد، 27 مارس 2011

إيلي كسرواني \*

من يسمع الصولو لجيلبير يمين، يعرف أنه أحسن استكشاف خبايا آلة القانون، بطباعها وخصائصها العربية والتركية والفارسية... ومن يعرف جيلبير يمين، يدرك أن أنامله العشر تقطرت نغماً ندياً وإيقاعاً حالمًا وأنه بلغ في صقل موهبته مرتبةً عالميةً عاليةً... ومن يعرفه أكثر، يدرك بامتياز أنه المتحدر من جبل الإلهام الذي منحه جامعة أيرلنغن نورنبرغ «كرسي» الاتصالات المتعددة الوسائط، وآثرت شركة سيارات أودي Audi الألمانية الاستئثار ببحوثه واختراعاته، فضمنت مشروعه في علم معالجة الإشارات الاستشعارية التي تقتضيها سلامة المسافرين... عندها يأخذك التساؤل: أترأه أدونيس العائد ليبرع على يده الربيع نغماً وحياةً حيثما حل؟

أسمية القانون لجيلبير يمين، تختصر ألف ليلة وليلة من ليالي الموسيقى الصافية. بدأت بتقاسيم شرقية هادئة قادتنا مسترسلين، لا بل مستسلمين، من سماعي طنبوري وبشرف إسماعيل حقي، إلى لونغا حيدر تطليبي، حكايات موسيقية آلية رأت النور في زمن غابر من بلاد فارس، وبعد أن تراكم في ذاكرتها الإبداع، حملها العثمانيون إلى بلاد العرب. إنها الموسيقى الآلية الأكثر قدماً وبراعةً وتنوعاً مقامياً بين الأشكال الموسيقية الشرقية. استخرج الجمال منها جيلبير يمين بطبعها الأمين إلى الأصول، وبالتقنية العالية الدقة، وبأدائه الرهيف. هذه الأشكال الموسيقية الآلية حافظت على فرادتها مدى قرون كانت فيها الموسيقى العربية غنائيةً فقط، إلى أن أثرى خزانتنا بعض المؤلفين بمقدمات القصائد وبعض المقطوعات الآلية القليلة في منتصف العشرين. بلغت شهرة هذه المعزوفات أن إحداهما، أي «اللونغا» بشكلها وإيقاع حركتها، ألهمت موزار أن يؤلف مقطوعته الشهيرة «المارش التركي» على صورتها.

غير أن من بقي عند هذا الحد من التقنية في زمننا الحاضر، حد من نموه وتطور اللغة الموسيقية للآلات الشرقية. وجيلبير يمين اعتنى عنايةً فائقةً بما نعتقد أنه أجنحة العازف المهني الثلاثة: تربية قدرته الفائقة على القراءة بسرعة من يسترجع اللحن من الذاكرة، تقنية وليونة وبراعة في قدرة الأصابع العشر على العزف بمختلف الأساليب والمدارس المكتوبة للقانون أو لسواه، وذاكرة متوقدة ألف الأقدمون الاعتماد عليها كي يأتي الأداء ذا بديهة وخصانية توحيان بأن العازف إنما هو مؤلف كل ما تتحته أصابعه من نغم.

قلت له يوماً عن حق، وها أنا أردد، «إني لا أخاف يا جيلبير! أن أرمي بين يديك، لامبالياً، كل لحن جمح إلى رسمه على صفحة الأمواج الصوتية خيالي؛ إنك لتعيد خلقه كلما لامس أوتارك».

وانثنى يمين يغزل على أوتاره خيوط ألوان «الدانوب» السماوية الزرقعة، مستلاً إياها من خيال «يوهان شتراوس»، ليحيلها بانتشاء «فنتازيا» تفري «الدانوب» بين حجاز ونهاوند، جادلاً ارتجالياتها ذات الطابع الشرقي على إيقاع السوينغ Swing فتغدو أرجوحة أوركستراية تجيد فالسا Valse يترنح فيسدل على قامات الراقصين أنيقةً وجمالاً، ويبسط ملامح القانون نحو القدرات العالمية. ثم أدى مقطوعة «الزهرة الصغيرة Petite fleur» لسدني بكت بأسلوب الجاز أيضاً، مع تكرار دوراته الإيقاعية كما في «الديوان الإيقاعي» العربي. أترأه يرسم إحياءً كوريفرافياً لرقصة سحرية تنعش العطر واللون في «الزهرة الصغيرة». إنه جيلبير الجسور غير المتردد في محو الأبعاد الفاصلة بين قانون وأوركسترا وبين شرق وغرب، وعند أنامله المتمردة تتمدد آلة القانون، متخطيةً ذاتها.

فالقانون العالق عند أنامل هذا المارد، وليد الصنعة التركية، يمتاز بالمتانة والرنين. أما دقته، فترجع لتقسيم البعد الطيني فيه إلى اثني عشر عربية، وليس إلى خمس عربات كالقانون العربي. وأوتاره منتصبة على متن هيكله الصلب، تشد متانةً ورنيناً، ما يسمح للعازف أن ينقض بالأصابع العشر من دون أن يخشى انحلال دوزانه، أو أن يخبو النغم في تصفيق الأوتار على بعضها. غير أن يمين يبقى يآثر القانون الشرقي في العزف الغنائي الطروب.

وجيلبير يمين، يشكو، حتى من القانون التركي، أن طبقاته السفلى أقل رنيناً من الوسطى والعلوية، وهو يحمل مشروع تطوير حجم وشكل هذه الآلة، ما يجعل الطبقات الغليظة أكثر قوةً ووضوحاً مما هي عليه، كي تلبى تقنياته المتفوقة، وعسى أن يظهر هذا التطور في الكونشرتو القادم.

وإذ حسن في عيني جيلبير أن يتأمل، راح يتمايل على أنامله تمايل المتصوفة، فتجلى مؤلفه «تأمل» لبيوح بالإيقاع المنتفض من جسد القانون، لدى نقرات الأنامل على أضلاعه، إلى النغم المترنح على أوتاره. عندها رأيت الأصابع الملهمه تزيح عن صدر القانون ضيقه، تمسحه مارداً يتنفس انتعاشاً كشمس نوار. لكأنك تسمع تفتق أضلاع القانون يرجع أناشيد غابية من آلهات «الهارب Harpe» تتنادى بينها زهواً. إنه قانون بقياس أداء جيلبير الشرود.

وإذ تناول معزوفة «الدانوب الأزرق» للعبقري يوهان شتراوس، فاجأنا بإثرائها بأسلوب الجاز من توافق وإيقاع وارتجال. خيرة كسبها وتمرس عليها جيلبير في ألمانيا ضمن مجموعة «يونيفرسال أنسامبل Universal Ensemble» مع عازف الباص الشهير «راينر غلاس Rainer Glas» وعازف الساكس المرموق في أوروبا «لاكاتوس Toni Lakatos» والذي تجلى على العديد من الآلات في مهرجانات بعليك للسنة الخالية. كما يشارك يميناً أيضاً مجموعة «السارابند» الألمانية المتخصصة في موسيقى العصور الوسطى.

أما جمهور الأمسية، فكان في منتهى الرقي الجمالي، كمن اختارهم فن جيلبير بأسمائهم. بدا متأخراً باللحن مدى الأمسية كلها. إنه عيون وأشجان منصبة على معجزة القانون، إنه باقة متألفة مستسلمة لنبل موسيقي يراقص مشاعرهم على أمواج النغم، يقبض على انتباههم، ويوازن أنفاسهم على وقعه منذ اللحظة الأولى حتى هدأة آخر صدى، فيبادلوه منادين لثلاث إعادات، على بساط من التصفيق الحار.

\* بروفيسور في علوم الميوزيميدياالوجي، مؤسس ورئيس قسم العلوم الموسيقية في جامعة سيدة اللويزة - لبنان



---

Source URL (retrieved on 03/28/2011 - 00:20): <http://international.daralhayat.com/internationalarticle/248705>

copyright © daralhayat.com